الفصل السادس

الخاتمة

(الآن قد بلغت ختام مهمتي. وآن الوقت لاجمع في خلاصة رتيبة نتائج بحثي عن الخير الذي أضفته المسيحية على الاخلاق. ومن العبث ان أحاول، في كتاب من هذا الحجم، الا وضع خلاصة موجزة للبحث. ولذلك سأجمل في هذا الفصل رءوس الموضوعات الرئيسية التي عالجتها، ثم أشير الى بعض الموضوعات التي كان ينبغي التبسط فيها في كتاب مسهب غير هذا، ولكنني ساكتفي بمجرد الاشارة اليها

لا يمكن القول ان الدين والآداب شيء واحد، ومع ذلك فان التلاحم بينهما وتداخل الواحد في الآخر مدى عصور التاريخ، كان مستمراً لم ينقطع، ولم تتوثق العلاقة بينهما في أي موضع آخر قدر توثقها في المسيحية. ومما قلت يتبين ان المسيحية قد اضفت خيراً على الاخلاق من الوجوه الآتية:

١ — في الوصيتين العظيمتين ، محبة الله ومحبة القريب ، اللتين أجمل فيهما يسوع ناموس الله ، وهما بما تضمنتاه من قواعد الآداب لم تشرعا نواهي تحكمية وأوامر تحريم فاصلة ، بل قامتا في أساسهما على مبدأ يشبع عقل الانسان وضميره

٢ — في الشعور بالخطية وحاجة الانسان الى الغفران مما يجعل وجهة نظر المسيحي الى الحياة عميقة ذات معنى خارق

٣ — في خلق موقف جديد حيال الله ، هو ثقة البنين ، تمتزج فيه المودة باتضاع النفس ، مما يأتلف مع بنوّة الله بالتبني في الاتحاد بيسوع المسيح ، وهذا احساس يشعر به المسيحي و يستمتعه

٤ — في التشديد على أهمية الخدمة الاجتماعية القائمة على الفكرة المسيحية عن الطبيعة الالهية كما أعلنت في يسوع المسيح ، والتي هي مظهر للقوة الروحية التي تربط أعضاء الجماعة المسيحية بالمسيح و بعضهم ببعض .

و بعد احصاء هذه الجهود يبقى الكثير ناقصاً . وانه بحث شيّق أن نفكر في الأثر الذي طبعته على المسيحية أمزجة الشعوب التي دانت بها ، وتاريخها السابق وتقاليدها وعاداتها . على ان المجال لا يسمح لي الا أن أشير فقط الى ان هذا الأثر لا بد ينتج نماذج مختلفة من الاختبارات الدينية المسيحية وما يلابسها

من نتائج اخلاقية . وقد أتيح لي في هذا البحث أن أسهب في الكلام عن العلاقات بين المُثُل الاخلاقية في المسيحية والمُثُل الاخلاقية بين اليهود الذين نشأت المسيحية في أحضانهم، وكذلك بينها وبين المُثُل الاخلاقية عند اليونان والرومان وهم الذين سادوا العالم، اليونان فكرياً والرومان سياسياً، في الزمن الذي خرجت فيه المسيحية من حدود فلسطين لتكون ديناً عالمياً. ولكنني لم أتبسط على هذا النحو في الكلام عن المؤثرات التي انطبعت على الاخلاق المسيحية بين الاجناس والشعوب التي دانت بالمسيحية في عصور متأخرة

أثر الاديان التاريخية الكبرى :

ثم ان بحثاً وافياً عن فضل المسيحية على الاخلاق، لا بد ان يشمل ليكون كاملاً، بعض الموازنة والمقارنة بين أثر المسيحية في النظريات والتصرفات الادبية وأثر الاديان التاريخية الكبرى التي دان بها البشر. فضلاً عن ان هذه الاديان قد أثّرت في المسيحية وتأثّرت بها، تارة عن طريق التأثير المباشر، واخرى عن طريق الصدّ والنفور وردّ الفعل. ولا بد من التسليم، كما أسلفت القول غير مرة، ان دين اسرائيل يعتبر بمثابة « فرش

الصورة » للتعاليم المسيحية ، وهو دين مؤسس المسيحية ودعاتها الاولين ودين الاسفار المقدسة التي أدمجت في الكتاب المقدس المسيحي . وعن طريق دين اسرائيل الذي نبتت فيه تأثرت المسيحية بالاديان القديمة الاخرى ، ربما المصرية ، وبلا شك البابلية ، ولا ننسى دين زرادشت الفارسي وهو من الاديان الحية حتى اليوم تحت اسم «البارسية» في بلاد ايران

ثم ان اليهودية ذاتها قد تأثرت فيما بعد من ناحيتين : فهي من الناحية الواحدة قد تطورت بمقتضى اضطرارها لتحديد موقفها حيال اختها المسيحية ، ومن الناحية الاخرى بحكم اضطرارها الى اقتباس بعض العادات والمشاعر المسيحية حيثما وجدت في البلدان التي دانت اكثريتها بالمسيحية. ثم ان الاديان اليونانية الرومانية التي استوطنت بينها الكنيسة المسيحية بعد اذ تركت مهدها اليهودي، قد أثرت في المسيحية في بادىء الامر عن طريق الصدّ والنفور . ذلك لان المسيحيين قد مالوا الى الاخذ بطرائق الحياة التي ورثوها عن دين اسرائيل القديم معارضين في هذا الموقف ، الحياة المألوفة بين الامم التي بثّت فيها دعايتها.

ومع ذلك فانه بعد تكاثر عدد المتنصرين من «الامم» جاء هؤلاء الى الكنيسة المسيحية بالعادات والمشاعر التي تأصلت

فيهم وهم بعد في أديانهم القديمة. ومن ثمَّ أثَّرت هذه الاديان تأثيراً كبيراً في تطور المسيحية التاريخي لا سيما في أوضاع العبادة وهي ميدان من ميادين السلوك

ولا شك أن أديان شعوب شمال أوربا وشرقها — وهم أقل حضارة — وهي الشعوب التي ترغلت فيها المسيحية — قد أثَّرت ايضاً في تطور الاخلاق المسيحية في تلك الرقاع من الكرة الارضية. وقد كان تأثيرها في أول الامر سلبياً، فان بعض قواعد السلوك الشائعة فيها حُظرت على المتنصرين المسيحيين، وقد اخذوا على أنفسهم تكاليف جديدة ووضعوا أمامهم مُثلاً للاخلاق جديدة. وظهر بعدئذ في الاراء الاخلاقية لتلك الشعوب التي اعتنقت المسيحية، الآثار الوراثية التي نقلوها عن أسلافهم. وطبيعي ان ينتج عن تطبيق المبادىء المسيحية على حياة أية جماعة جديدة، تطورات لتلك المبادىء، ما كانت لتحدث في وسطها الاصلي الذي ترعرت فيه

أثر الاسلام:

وفي صدد التحدث عن تاريخ فضل المسيحية على الاخلاق، لا يفوتنا ان نلمح الى الاثر الذي انطبع على وجهة نظر ومسلك

الامم والشعوب التي دانت بالمسيحية من جراء احتكاكها الطويل ومنازعاتها في القرون الوسطى بدين آخر عظيم، هو دين الاسلام. وكان تأثير الاسلام على المسيحية، على الاغلب، من ناحيتين متعارضتين: الاولى تقوية روح الاتحاد بين الشعوب المسيحية، التي بعد أن ظلت على خلاف ردحاً طويلاً من الزمن وحّدت جهودها واتحدت كلمتها مئات من السنين بعد اذ أحست انها تواجه قضية مشتركة في الوقوف ضد الاسلام. والثانية عن طريق الاراء والافكار التي اقتبستها مدارس أوربا المسيحية في القرن الثاني عشر الى القرن السادس عشر من علماء المسلمين ومفكريهم أمثال ابن سيناء والغزالي وابن رشد. ولولا تأثير افكار هؤلاء العلماء، لاتخذت تطورات الفلسفة واللاهوت في العالم المسيحي طريقاً آخر، والاخلاق لن تكون بمعزل عن الفلسفة واللاهوت.

أما في عصرنا هذا، فقد أدّت سهولة المواصلات الى ازالة الحواجز بين الشعوب والاديان الى حدّ لم يكن يعرفه العصر القديم، وتوافرت الفرصة لتبادل الاختبارات الدينية تبادلاً حراً بين أتباع الاديان المختلفة، مما نأمل ان يكون من ورائه كل الخير. ولا بد ان يكون لهذا أثره في نظريات الاخلاق ومناهج

السلوك من جانب الذين يبدون استعداداً — مهما يكن دينهم — للانتفاع بكل الاختبارات الدينية والتقاليد التي تجمّعت بسبب هذا التبادل الجديد وصارت ذخراً مشتركاً

أثر مدارس الفكر المختلفة منها فلسفية وعلمية :

ولا يكفي الباحث في فضل المسيحية على الاخلاق ان يبين أثر الاديان المختلفة، فلا بد له، لايفاء موضوعه، من البحث في الآثار التي انطبعت على مبادىء المسيحيين الاخلاقية بسبب اتصال دينهم بالفلسفات ومدارس الفكر المختلفة — الرواقية والافلاطونية قديماً، والارسطاطالية في القرون الوسطى، والنهضة الادبية في عهد الاحياء الاوربي — واتصاله بمطارحات وآراء ديكارت وسبينوزا وليبنتز وهيوم وكانت وهيجل وشوبنهور وكونت وبرجسون وغيرهم، وكثير ما هم — واتصاله بالعقائد العلمية التي أثارها غاليليو ونيوتن وداروِن، أو التي أثارها في عصرنا الحاضر اينشتين وفرويد، وأدبيات تولستوي ونيتشه — وغير هؤلاء ممن لا حصر لهم. وليس من اصالة الرأي ايضاً أن نتجاهل الكتّاب الآخرين الذين لم يكن تأثيرهم مباشراً، والشعراء ورجال الادب الذين صاغوا الافكار والمشاعر المتفاعلة

في العالم الروحي في عصرهم . كذلك لا نتجاهل أثر النهضات السياسية — الرأسمالية والقومية والاستعمارية والاشتراكية والشيوعية وغيرها — وهذه كلها قد احتكت بالمسيحية وتحدّتها لكي تطبق المبادىء العامة التي ادّخرتها على المشاكل الكثيرة التي أثارتها هذه النهضات المختلفة — واعني بها مبادىء محبة الله والناس كما تفهمها — المبادىء التي قوامها الآب البار المحب والابن المفتقر الى الغفران قبل أن يستمتع محبة أبيه

كذلك اعتقد انه لاستكمال البحث في هذا الموضوع ينبغي الاّ نقتصر على مبادىء المسيحية الاساسية المعترف بها اجماعاً في وثائق الايمان ، بل نبحث ايضاً الطرق التي عالجت بها الكنيسة المسيحية (وفي العصور المتأخرة افرع الكنيسة المختلفة بعد فقدان وحدتها الخارجية) تلك المشاكل الكثيرة التي ولدتها الحضارة الحديثة وتطوراتها المتشابكة ، والتي نشأت عن اتساع افق المعرفة الجديدة في العلوم المختلفة وفي متجهات العقل البشري ونواحي نشاطه الكثيرة ، خلال القرون التي عاشت فيها المسيحية في هذا العالم — هذه كلها لازمة لاستكمال بحث من هذا النوع ، ولكنه في غير طوقي في هذا المقام أن استوعب كل هذه الموضوعات

حاجة العالم للاتحاد الداخلي :

أصبح عالم البشر، في عصوره المتأخرة، اشدَّ ما يكون امتزاجاً مما لم يألفه من قبل، وذلك بفضل أوضاع الحياة المادية الحديثة. وأخذت تختفي الظواهر المميزة للبلدان المختلفة، على الأقل في العواصم والحواضر الكبرى. ففي كل مكان ترى العين قطر السكة الحديد والسيارات والدرَّاجات والانوار الكهربائية ودور الصور المتحركة والمطاعم وحفلات الراديو الخ ـ كلها على نمط واحد في سائر المدن تكاد لا تميزها عن بعضها. ودوائر الانتاج تغرق العالم بالمواد الضرورية والكمالية، كلها مصنوعة على طراز واحد. واذا أردنا أن نتعظ بدرس من دروس الماضي، فلنا ان نستذكر الظواهر المتشابهة—في نطاق أضيق— التي برزت للعيان ابَّان عظمة الامبراطورية الرومانية في البحر الابيض المتوسط في بداية العصر المسيحي. فهناك نشهد نظاماً محكماً للمواصلات، كان له الفضل في ايجاد وحدة ظاهرة من نواح شتى في منطقة معينة رامت الاحتفاظ بوحدة داخلية عن طريق سيادة دين امبراطوري جامع. ولقد حاولت الحكومة الرومانية القيصرية ان تقيم ديناً جامعاً في عبادة شخص الامبراطور

ولـكنها فشلت ، شأن أي حيلة سياسية يلتمسها البشر لاشباع أشواق الروح ، ولـكن هذا المطلب قد سدّته المسيحية من حيث لم تدرِ تلك الامبراطورية العظيمة

ومما لا شك فيه أن المسيحيين يؤمنون ويرجون أن تسدّ المسيحية هذا المطلب في هذا العصر أيضاً وفي نطاق أوسع . ولـكن لا بد ان تكون المسيحية التي تسد هذا المطلب قادرة على ادماج نفسها في الاختبارات الدينية للشـعوب التي بقيت غريبة عنها حتى الآن ، كما ادمجت نفسها من قبل في اختبارات شعوب اوربا . والمسيحية في هذا العصر ، مع تسلسلها التاريخي واتصالها بالمسيحية البدائية في العصور الأُول ، ومع توافقها معها توافقاً صادقاً ، تختلف عنها من نواحٍ كثيرة. فاذا رام أتباع المسيحية تحقيق هذه الآمال وجب أن تختلف المسيحية في المستقبل عما هي عليه الآن ، مع الاحتفاظ بالتسلسل التاريخي ، والجوهر الاصلي الذي يميزها وتُدعى به مسيحية . ولا شك ان في العـالم اليوم حاجة — في نطاق أوسع — مماثلة لتلك الحاجة التي اشبعتها المسيحية في عالم البحر الابيض المتوسط قبل تسعة عشر قرناً. وليس من ينكر هذا الآ كل مكابر يزعم ان الانسانية في غنى عن كل دين

أما يزال العالم مفتقراً للدين ؟

وعندي أن الذين يزعمون أن العالم في غنىً عن الدين ليسوا على حق. فان شعور المرء بوجوده في حضرة «شيء» أو «شخص» تتصل به كل اختباراته ، بل نفسه ، اتصالاً مباشراً وثيقاً ، لا اتصالاً متباعداً سائباً — أقول ان هذا الشعور يُدخل الى النفس شيئاً من الرهبة والوقار يتفاوت بين خوف الرعدة وبين المحبة «التي تطرح الخوف خارجاً»[1] . وهذا الشعور ، وان خبا في نفس ساكن المدن التي تعج بالصخب والضجيج ، لن يستأصل من النفس كلية ، ولن يمكن الاستعاضة عنه بأية وظيفة أخرى من وظائف الروح البشرية .

ومما هو جدير بالذكر ان أحد كبار المفكرين في هذا العصر ، كان قد ذهب في كتاباته الاولى الى الزعم ان الدين ليس الا ضرباً من ضروب الفلسفة المختصة بالاطفال ، ولكنه عاد الآن ووجد فيه شيئاً اكثر من هذا — وجد فيه تصريحاً بان حياتنا الحاضرة متصلة بالماضي ومتسلسلة في حلقات متواصلة ، مما يحول بيننا و بين القاء التاريخ وراء ظهورنا والشروع في بداية جديدة.

---

(١) ١ يوحنا ٤ : ١٨

واست أظن هـذا وصفاً ملائماً لطبيعة الدين أو وظيفته ولـكنه على أي حال وصف آخر غير ما ذهب اليه المفكر في بادىء الامر عند قوله إن الدين هو الفلسفة في مهد الطفولة ، اذ يعزو له اهمية مستديمة ويحلُه في أعماق الـكيان البشري الذي نحسـه

ومع انني اعتقد أن الانسـان ، كما هو ، لن يكون غـير «حيوان» ديني . كما قيل عنه ، الا انني موقن اليقين كله ان في حضارة العالم العصرية المادية شيئاً كثيراً مما يفقر المشاعر الدينية ويجوّعها ، ويحول بينها وبين تلك الحرية الطليقة التي هي من مستلزمات رقيّ الشخصية الانسانية

وهنا اوجه الافكار الى بعض الاعتبارات التي ألمتُ اليها النظر في الفصل الرابع ، حيث بحثنا منزلة الدين في الاخلاق المسيحية . واني افكر في الاعتبارات الناشئة عن الوصية الاولى العظمى وهي محبة الله في المسيحية ، واتصالها اتصالاً لا ينفصل بالفكرة المسيحية عن محبة القريب وخدمة الآخرين التي تفرضها هذه المحبة ، أو بالحري التي تنطوي عليه هذه المحبة (وقد رأينا ان هذا ما تمليه علينا المحبة العملية) .

لقد رأينا ان الآداب مستقلة في ذاتها ، فلا حاجة بها الى مسوغ خارجي في شـكل ثواب للطاعة أو عقاب للعصيان مما

يفرضه الشارع في القانون، ومع ذلك فانه متى انفصلت الآداب عن الدين ، قلّ شأن سلطانها الذاتي وانخفضت قيمتها الذاتية، ذلك لان الشعور بالواجب الاخلاقي هو احدى الحقائق التي ندركها بالفطرة في اختباراتنا البشرية . ولهذه الحقيقة قدرة على اثارة شعور الرهبة الدينية في النفس البشرية . واخلاقيات « كانت » الفيلسوف ليست عاطلة عن الدين على الرغم من اصراره في القول على أن الآداب مستقلة في كيانها الذاتي ، وذلك لان الشعور بالواجب الاخلاقي في عرفه ، وفي جلال سلطانه البارز ، انما هو موضوع الرهبة الدينية وموضوع عبادة لم يأبَ هو اداءها لذلك الواجب

ومن ثمَّ نرى انه حيثما مال البشر الى انكار ما للدين من منزلة في الحياة البشرية ، تلك المنزلة التي تخللت كل اطوار تاريخ الجنس البشري كوظيفة ضرورية من وظائف الروح الانسانية ، فانهم يختنقون في أنفسهم تلك الغريزة التي تستجيب لنداء الواجب الاخلاقي في ضمائرهم وتثير مشاعر الرهبة والخشوع والعبادة ، وهذا بغض النظر عن تسليمهم بانهم ملزمون بفعل أشياء معينة والامتناع عن أشياء أخرى . و بعد أن يختنقوا في أنفسهم تلك الغريزة يستسلمون الى الشك فيتساءلون :

ألا يكون خداعاً و بطلاً ذلك الصوت الذي رفضوا استجابة نداءه ، أفلا تكون رغبات الفرد في الافصاح عن ذاته ومشاعر العطف نحو الذين يحبهم هي علة هذه التكاليف والالتزامات التي يحسُّ بها . ولقد خلصنا من تفكيرنا على هذا النحو الى ان مضمون الوصية الاولى العظمى التي تفرضها الشريعة المسيحية ـ المضمون الذي نستخلص منه ان الآداب قائمة على أساس يسمو فوق شعور الفرد ومن خصائص المبدأ الروحي ، مبدأ الاتحاد في كل الحقيقة ، والذي يكشف عن طبيعة المسيحية في اختبار المحبة المتبادلة — لا يمكن اغفاله (أي المضمون) دون تعريض الآداب للخطر ، أو بعبارة أخرى لا غنىً للآداب عن الدين ، لا لانها تفتقر الى مسوغ خارجي ، بل لانها تبدو بدون تعليلها الديني حقيقة غير مفهومة لا تتناسق مع الاختبار البشري كله ؛ ولذلك يكون من الميسور اتهامها انها مجرد نعرة عنيدة يحاول الانسان العاقل اغفالها وغض الطرف عنها

وهذه الاعتبارات مناسبة للمقام الذي نجد أنفسنا فيه في هذا العصر . فانه مما لا شك فيه أن الدين ـ بل الاديان كلها ـ يتعرض للتهديد من جرّاء المقاومة التي يلقاها من الفكرة العالمية المحضة التي تستند الى تأويل التاريخ تأويلاً اقتصادياً بحتاً ،

والتي تنكر على الانسانية لذتها في حياة النفس الداخلية ، وذلك المطلب الذي يسعى اليه الانسان في التماس الحقيقة الخالدة الروحية التي تقوم عليها المؤسسات الدينية في كل أمة . لان لكل أمة منشآتها الدينية ، وان تكن في بعض الامم خاصة بها ، وفي الاخرى من نوع يسمو فوق الحدود الوطنية كما هو الحال في الاسلام أو المسيحية . وفي كثير من الامم ، ولعلّه في أغلبها ، مؤسسات دينية في أكثر من نوع واحد وجماعات مختلفة ترتبط بمؤسسات مختلفة.

والى الازمنة الحديثة ، كان طبيعياً أن يسأل المرء: «الى أي دين تنتمي هذه الامة أو تلك» وكان الجواب في أغلب الاحيان: «الى اكثر من دين واحد» . ولم نفهم الا مؤخراً ان الحياد الديني هو الموقف العادي السليم الذي يجب ان تقفه الحكومة القومية أو الدولة . ومن دواعي الاسف ان عدم الاكتراث بالدين يعتبر ، حتى في نظر الذين يهمهم أمر الدين ، الموقف السليم الذي يجب ان تتخذه الدولة أو الامة . بل ان حكومات بعض الشعوب الكبيرة القوية قد اتخذت موقفاً معادياً لكل نوع من أنواع الدين .

العطف المتبادل بين ذوى العقول المتربية :

ويكاد يجيء الخطر الاكبر على الدين من المادية اللادينية التي تطغي الآن على حياة المتحضرين ، والتي تسوقهم الى تجاهل الدين لا الى اضطهاده .وعندنا ان هذا أشد خطراً. وقد يصح أن نسميه «الدين المجاهد في اللادينية» وهو الذي تتصف به شيوعية موسكو . وللافاة هذا الخطر يتحتم على كل من يؤمنون ان الدين عامل ضروري ثابت في الكيان البشري العادي السليم، أن يبذلوا جهود المستميتين لاحياء خوف الله في قلب الجنس البشري ، وعبادة الله في حياة بني الانسان

وفي كل جنس من أجناس البشر نجد مَن يهتمون حقاً بمغامرة الروح ، يطلبون الله ويريدونه ، وهذا المطلب هو الالهام الذي تبثه في النفس تلك الاديان التي رفعت البشرية فوق مستوى الرضى بحياة الماديات المحسوسة ، وجعلت همها الاشياء الروحية الخالدة . وامثال هؤلاء في كل جنس من الناس ينظرون الى نظرائهم ممن يفكرون تفكيرهم في الاجناس الاخرى نظرة ملؤها العطف والتعاون .

وليس أقوى على اثارة العطف وتقوية أسباب التعاون من

تبادل الاختبارات الدينيـة الادبية تبادلاً حراً طليقاً . وهذ التعاون المتبادل يكون على اتمه حينما يخلو من مرارة التعصب لتقاليدنا بحيث لا يتعذر علينا ان نجوز الى تقاليد الآخرين ونتذوقها، وحينما يخلو ايضاً من التخنث الضعيف والتأدب الهزيل في تجاهلنا الفوارق القائمة بين تقاليدناوتقاليد الغير والاستهانة بها. ويجب ان تُجابه ، في هذا التعاون المتبادل ، الحقائق كما هي ، فلا تخفى الفوارق ولا تطمس أوجه الشبه . وان نقدّر ، في غير تردد ، وبروح التفاهم الممزوج بالعطف ، وجهات نظر الآخرين ونتعلم منها ، كما ينبغي ان نظهر في غير مواربة ما تعلمناه في اختبارنا الخاص ، كاملاً غير منقوص ، دون أية محاولة لاخفاء شيء منه خشية اعثار الغير. أجل ينبغي ان يكون هذا التعاون المتبادل حراً رزيناً وديعاً ودوداً يعمل كل مشترك فيه ، لا لكسب الغلب أو ابتغاء الرضى ، بل لخير الآخرين ، يعمل لا بروح ارضاء الذات، بل برغبة صادقة كأنه يعامل الآخرين كما يريد ان يعامله الآخرون .

وحسبي ان يكون الغرض من هذا الكتاب خلق هذا النوع من التعاون الحرّ الطليق بين ذوي العقول المتدينة والافكار الحرّة